

# الكونفوشيوسية فى ميزان الفكر الإسلامى

د. حسين جليعب السعيدى\*

## المقدمة :

تعتبر دراسة الأديان والفلسفات المغايرة للإسلام ، أمراً حث عليه الإسلام، ودعا إليه . ولا غرو فإن القرآن الكريم ذكر لنا كثيراً من عقائد أهل الكتاب الذين انحرفوا بها عن الصراط المستقيم ، ثم ذكر لنا عقائد بعض الفرق الملحدة كالدهرية وغيرها حيث سجل القرآن مقالاتهم : (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)<sup>(1)</sup>.

من هنا كان واجب الباحثين ، أن يطلعوا على عقائد الديانات الأخرى ، سماوية كانت أو وضعية ، حتى يتسنى لهم إبراز محاسن الإسلام ، وعرض صورته المضيئة على العالم .

ومن ثم كانت هذه الدراسة المتأنية عن الديانة الكونفوشيوسية ، والتي يدين بها قطاع عريض من البشر فى هذه البلاد البعيدة والغائبة عنا ، لنرى ما عليه هؤلاء الناس من عقيدة ودين يسيرون عليه ، ويوجه سلوكهم ، ويشكل أفكارهم ، وأن تكون الدراسة من كتب القوم المعتمدة عندهم .

ولما كان هذا أمر صعب المنال اكتفيت بما نقله الثقة من علماء الأمة الإسلامية ، وكان فيه الغناء والكفاية لإلقاء الضوء على هذه الديانة .

اشتهر كونفوشيوس بين الصينيين بـ "كونغ فوتس" ومعنى فوتس هو "حكيم أو الأستاذ ، وكونغ هو الاسم . فمعنى التركيب الأستاذ أو الحكيم كونغ،

\* المدرس بكلية الشريعة ، جامعة الكويت

(<sup>1</sup>) سورة الجاثية ، الآية : 24.

وقد حرقه الغربيون إلى كونفوشيوس<sup>(1)</sup>.

وهذه الصياغة وإن شئت قلت التحريف قد فعلها القساوسة اليسوعيون الذين يعيشون في الصين من بعده بزمان طويل ، والذين أوصوا بابا روما أن يدرج كونفوشيوس في سجل القديسين ، ولقد كان أتباع كونفوشيوس وتلاميذه في حياته يطلقون عليه اسم كونج فو - تشى - زى ، أى كونج الفيلسوف<sup>(2)</sup>.

ولد الحكيم كونفوشيوس عام 551 قبل الميلاد بإحدى قرى مقاطعة "لو" في الصين ، وكانت أسرته تمت في نسبها إلى فرع ملكى ، فكان يجرى في عروقه دم ملكى يشعره بالعزة .

ولقد كان أبوه قائداً عظيماً ، وحاكماً لإحدى المدن ، ولم يعقب في شرح شبابه ولا في كهولته ، ثم وهب الله له ذلك الابن الحكيم على الكبر ، وقد نيف على السبعين ، لكن الطفل لم يكد يبلغ الثالثة من عمره حتى فقد أباه ولم يترك له من متاع الدنيا شيئاً ، غير أنه عاش على سمعة أسرته ، مقدور الرزق محدود المورد، وتعلم العلم الذى كان يتعلمه من هو فى مثل حالته ، فتعلم آراء الأقدمين الدينية وتفهمها وأخذ بها ، وكان لها سلطان تام على نفسه<sup>(3)</sup>.

كان كونفوشيوس فى طفولته يقضى وقت لعبه وفراغه فى تقديم القرابين المقدسة ، وحضور الحفلات الدينية .

ولما شب كونفوشيوس أحاطه منزل تشى ، أحد أمراء المملكة برعايته ، فاشتغل عند هذا الأمير يرعى الماشية والأغنام ، واهتم كونفوشيوس بحرفته مما أدى إلى زيادة نتاج هذه الثروة الحيوانية . فرقى بعد ذلك مشرفاً على الحدائق والأشغال العمومية . ومع الحاجة الشديدة والملحة إلى أمر المادة ، إلا أن هذه الحاجة لم تشغله عن الصلاة ، والمعرفة ، والثقافة ، والتعلم . وهكذا نشأة

(1) المرجع السابق ، ص 68.

(2) الأديان القديمة : الدكتور حسن الهوارى ، ص 116 ، طبعة دار المثنى ببغداد.

(3) الديانات القديمة ، مرجع سابق ، ص 68.

العابرة والأدباء والفلاسفة والعظماء فى كل العصور ، فقد انصرف الغلام كونفوشيوس منذ حدثته إلى الدرس والبحث وخصوصاً دراسة آداب القدماء ، ثم أخذ يتقلب فى المناصب الحكومية ، وبكفاءة نادرة .

وكان فى خلال تلك السنوات يفكر تفكيراً عميقاً فى أحوال بلاده ، ويكون فلسفته الاجتماعية والسياسية ، وأحزنه ما آل إليه الحال فى بلاده فهجر الوظيفة الحكومية فى نهاية الأمر وانقطع إلى مهنة التعليم ، وجلس للناس يعلمهم الحكمة والفلسفة ، وأقبل إليه الناس وخاصة الشباب ، ولم يلبث طويلاً حتى علا صيته وارتفعت مكانته ، وكان تلاميذه من العلماء المبرزين ، ونظروا إليه نظرة إكبار وإجلال واحترام تكاد تفوق عبادة الأبطال الأفاضل ، وفى هذا دليل على علو كعبه فى التعليم والحكمة (1).

فى السابعة عشرة من عمره تقلد كونفوشيوس وظيفة مدنية ، فكان فيها على خزائن الحبوب بالدولة ، وقد استطاع أن يكون ثروة طيبة من هذا الحصاد . ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره تزوج وقدم عربوناً لزواجه مبلغاً كبيراً ، وأشياء فاخرة لزوجة ثرية ، وكان يتمتع باحترام الكبار الأثرياء فى الدولة . ففى يوم زواجه تسلم من دوق المدينة أئمن وأسخى هدية : زوجاً من السمك الكبير النادر الوجود .

وبعد عام واحد . أنجب ولداً سماه تقديراً لهدية الدوق بو-يو Po Yiu أى السمكة الجميلة .

كان كونفوشيوس ناجحاً فى وظيفته ولكنه لم يكن قانعاً ، لأنه فى طبيعته رجل تفكير أكثر منه رجل عمل ، وكان يريد قبل كل شئ وبعد كل شئ . أن يكون متعلماً ، وواتته الفرصة التى كان يريدتها من خلال تيار من الحزن ، الذى ألم به بسبب وفاة والدته ، ومع حزنه عليها استراح من عبء رعايتها والقيام

---

(1) الكونفوشيوسية : نشأتها وتطورها ، وموقف الإسلام منها ، رسالة ماجستير ، بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة ، للباحث سليم السيد أحمد المسلمى ص 44.

بشئونها، وطبقاً للتقاليد الصينية أقام فى كوخ بجانب قبرها لمدة ثلاثة أعوام (1).  
هذه المدة الطويلة من الحداد والتي أقامها كونفوشيوس بجوار قبر أمه جعلته يهمل شئون أسرته من زوجة وولد ومال مما جعل المرأة تضجر من هذه الحياة الصعبة مع هذا الفيلسوف المتعنت ، فأدى ذلك إلى انفصالها عنه بعد أربع سنوات من هذا الزواج (2).

ولو علم هذا الحكيم أن الحى أولى من الميت ، وأنه يجب على الإنسان أن يعطى كل ذى حق حقه ، ما وقع له ما وقع .

وقيل : إن سبب انفصاله عن زوجته انصرافه إلى التعليم كلية ، مما جعله يغيب عن منزله لفترات طويلة ، وقيل : لأن حياته كانت من نوع خاص لم تتحمله المرأة وقتها . ومهما يكن من شئ فقد وقع الفراق بين الفيلسوف وبين زوجته . بعد أن خلف هذا الزواج ولداً وبنتين (3).

إلا أنه ما من بشر نجح فى ميدان ، إلا وأخفق فى ميدان آخر . فإن كان كونفوشيوس نجح فى جانب العلم والحكمة . إلا أنه أخفق فى جانب مهم ألا وهو حياته الأسرية .

وقد تمتع كونفوشيوس بعدة صفات وأخلاق ، جعلت منه إنساناً نبيلاً وجليساً مرغوباً فيه ، وقد كان متصفاً بعدة صفات نوجزها فيما يلى :

دمث ، مرح ، مؤدب ، يحب النكتة ، يتأثر لبكاء الآخرين ، يبدو قاسياً وغلظاً فى بعض الأحيان ، وكان مع ذلك حسن العشرة ولكن مع حزم ، عزيز النفس دون تعال على الغير ، مترفعاً عن العزوف عن استغلال من هم أقل منه .  
وعندما أنبأه أحد أتباعه بوقوع حريق فى بعض مرابض الخيل تساءل على الفور : هل أصيب أحد الناس بأذى ؟ ولم يسأل عن الخيل باهتمام مثلما

(1) عظماء قادة الأكيان ، الدكتور عبدالجليل شلبي ، مؤسسة الخليج ، ص 71 ، 72 بتصرف.

(2) الكونفوشيوسية ، رسالة ماجستير ، مرجع سابق ، ص 46 بتصرف .

(3) المرجع السابق بتصرف ص 46.

سأل عن مستخدم الخيل .

ولقد كان تأثره عجبياً ، وإنرافه للدموع سريعاً خاصة عندما كانت تمر به جنازة من الجنازات ، ولا سيما إذا كانت لأحد معارفه .

ولقد بكى على أحد تلاميذه المفضلين عندما توفي بكاءً مرأً وسئل عن السبب ؟ فأجاب : إذا لم أبك هذا الصديق بكاءً مرأً فمن أبكى غيره إذن (1).

أما عن صفاته الخلقية . فقد كان طويلاً دقيقاً فى المأكل والمشرب والملبس ، مولعاً بالقراءة والبحث والتعلم والتعليم والمعرفة والآداب .

وكان أهم ما يفتق باله : أن تأتي ظروف تحول بينه وبين الإطلاع ، وكان يقول : أنه ليس شخصياً ولد عارفاً للحقيقة ، ولكنه شخص لا يمل القراءة والتعلم والبحث والوصول إلى المعرفة ما وجد إلى ذلك سبيلاً (2).

هذا بالإضافة إلى أنه كان خطيباً بارعاً معلماً ناجحاً متواضعاً زاهداً رحيماً رؤوفاً إلى غير ذلك من الصفات التى تجمع حوله الناس ، وتحببهم فيه .

### مؤلفاته العلمية :

هناك تسعة كتب صينية قديمة ترتبط باسم كونفوشيوس أشد الارتباط . وقد ظلت هذه الكتب قروناً عدة لها أكبر الأثر فى توجيه حياة أهل الصين ، بل كان طالبوا الالتحاق بالوظائف الحكومية يؤدون اختباراً دقيقاً فيما تتضمنه هذه الكتب . وإن كان لا ينسب إلى كونفوشيوس إلا كتاب واحد من هذه الكتب التسعة ، وهو كتاب المنتخبات ، ومع ذلك فقد أحاط هذا الحكيم بكل معلومات عصره تقريباً ثم صاغها صياغة سهلة وقدمها للناس فى قالب بسيط يتفق وعقول عامة الشعب .

(1) الكونفوشيوسية ، مرجع سابق ، ص 46.

(2) كونفوشيوس النبى الصينى ، ص 17 نقلاً عن المرجع السابق .

وهذه الكتب تنقسم إلى قسمين :

1- القسم الأول : يتضمن خمسة كتب تعرف باسم : الكاسيكات الخمس كنج . وهى الكتب القديمة السابقة على عصر كونفوشيوس استمد منها إلهامه ، وأعاد صياغتها بلغة تناسب العصر .

ومن هذه الكتب كتاب الأحداث التاريخية "وشوكنج" وهو عبارة عن شذور من تاريخ الصين وكتاب "شى كنج" وهو عبارة عن ديوان شعرى .

2- القسم الثانى : وهو عبارة عن أربعة كتب ، وتعرف باسم "سوشو" ويرجع تاريخها إلى عهد متأخر من عهود الكتب الخمسة الأولى ، وقد قام بكتابتها تلاميذ كونفوشيوس ومريدوه .

ويكاد يجمع الباحثون على أن الحكيم كونفوشيوس ألقى بعض هذه الكتب على تلاميذه إملاء ، كما حاورهم أو حاضروهم فى البعض الآخر فرووه عنه وأثبتوه مقترناً باسمه دون تغيير ولا تبديل .

ومن هذه الكتب : الكتاب الأول "تاهسيو" أى المعرفة الكبرى أو العلم العظيم . وهو عبارة عن منهج لتقويم الأخلاق وبحث فى الفضيلة .

وكتاب "تشونج يونج" أى مذهب الوسيلة الوسطى ، وهو أهم كتب هذا الحكيم الفلسفية . لأنه هو الكتاب الوحيد الذى يحوى مذهبه ، والمؤلف الجوهري الجدير بالاعتماد عليه ، لدى الباحثين فى فهم الفلسفة الكونفوشيوسية (1).

هل كان كونفوشيوس نبياً؟

إنه من المعلوم فى عقائد المسلمين ، أن الله بعث فى كل أمة رسولا يدعوها إلى الله ونبذ الآلهة الزائفة ، ولذا يقول الله سبحانه (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا

(1) انظر : الكونفوشيوسية ، مرجع سابق ، ص 61 وما بعدها بتصرف .

فِيهَا نَذِيرٌ<sup>(1)</sup>.

ويقول في سورة أخرى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)<sup>(2)</sup>.

وبناء على هذا تكون الأمة الصينية من الأمم التي بعث فيها أنبياء وأرسل إليها رسلاً . فهل كان كونفوشيوس أحد هؤلاء الأنبياء ؟

في الواقع ، يكاد يجمع الباحثون على أن كونفوشيوس لم يكن نبياً ، ولم يدع هو كذلك ، ولكنه قد حذا حذو الأنبياء والزعماء الدينيين من حيث تبسيط المعلومات والآراء وجعلها مستساغة لدى الجمهور العام من الناس .

وليست هناك أى أدلة تاريخية تثبت أن كونفوشيوس كان من نوع الأنبياء أو القديسين الموحى إليهم والملهمين بدعوة الناس إلى الحق ، وإنما كان كونفوشيوس حكيماً من الحكماء اطلع على كتب الأولين واستخلص زبدتها وأراد أن يقدم للناس خلاصة سهلة مفهومة لما تحويه هذه الكتب من وصايا وتعاليم .

غير أنني أزعم زعماً من الممكن أن يكون صواباً : ما المانع أن يكون كونفوشيوس نبياً أرسله الله لأهل الصين ، ثم حرف أتباعه معين الوحي الصافي لديه ، وإن كان الأولى التوقف في مثل هذه الأمور . مع الإيمان بأنه ما من جزء من أرض الله إلا وبعث فيه أنبياء يدعون الناس إلى عبادة الله سبحانه وتعالى<sup>(3)</sup>.

وفاته :

في السبعين من عمره مات ابن له فبكاه ، وفي الحادية والسبعين مات تلميذه مريد حبيب فبكاه ، وفي الثانية والسبعين مات تلميذ ثان حبيب إلى قلبه ، فلم

(1) سورة فاطر : الآية 24.

(2) سورة النحل : آية : 36.

(3) الكونفوشيوسية ، مرجع سابق ، ص 66.

يحتمل المصيبة فصاح :انظروا كيف تحطمنى السماء !  
وإثر حلم مزعج ، نادى أتباعه ومريديه قائلاً لهم : إن حياتى تؤذن بمغيب ،  
ثم ناح وهو يقول : أما من حاكم ذكى يدعونى وأرشدده وهذه أيامى قد أذنت بانتهاء .  
ثم لزم فراشه سبعة أيام ، مات بعدها دون أن تبدو عليه أية إشارة أنه يستعد لشيئ  
سيلقاه فى السماء ، بل إن أحداً لم يسمع من فمه صلاة .

وعندما استشعر دنو أجله أنشد يقول :

آه . إن تايشان . الجبل ينهار

والعمود يسقط إلى أسفل

والفيلسوف سيذهب

وتوفى كونفوشيوس عام 478 قبل الميلاد ، بعد حياة حافلة بالدعوة إلى  
التمسك الأخلاقى ، والإصلاح الاجتماعى ، والسياسى والدعوة إلى تثقيف الشعب  
وتعليمه أسس الأخلاق والمبادئ الفاضلة .

وعندما ذاع نبأ موته عم الحزن جميع أنحاء الصين (1).

وبعد موت كونفوشيوس عام 479 قبل الميلاد ، تفرق تلاميذه . وىروى  
أنهم كانوا حوالى سبعين تلميذاً . وأهم هؤلاء التلاميذ : منتسيوس ، وهسون تسو .  
ولقد ذهب أحد الفلاسفة الصينيين المحدثين إلى أن مكانة كونفوشيوس فى تاريخ  
الصين بمكانة سقراط فى تاريخ الغرب . كما شبه منتوسىوس المثالى فى فلسفته  
بأفلاطون . وشبه "هسوت تسو" الواقعى بأرسطو .

ويشكل كونفوشيوس ومنتسيوس وهسوت تسو نوعاً من الثالوث بوصفهم  
الآباء المؤسسين للكونفوشوسية .

وقد ولد منتسيوس عام 390 ق.م وكان معلماً شغوفاً من أجل أن ينال  
منصباً فى بلاط الدولة ، أما هسوت تسو فقد كان يرى أن المتعلم هو القادر على

(1) انظر الكونفوشوسية ص 72، وما بعدها .



## نماذج من أقوال كونفوشيوس :

- إذا عرفت شيئاً فتمسك بآنك تعرفه ، وإذا لم تعرفه فأقر بآنك لا تعرفه ، إن ذلك فى حد ذاته معرفة .
- إذا كنت عاجزاً عن خدمة الناس . فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم ؟
- إذا كنت لا تعرف الحياة ، فكيف يتسنى لك أن تعرف شيئاً عن الموت ؟
- استمل الصالحين المستقيمين واتبذ المعوجين ، وبهذا الطريق يستقيم المعوج (2).

وهذه الكلمة الأخيرة. تطابق الأثر النبوى الشريف. الذى يقول فيه الرسول ﷺ : (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) (3).

ويقول كونفوشيوس : إن الإنسان مفطور على الخير.

إن الإنسان مفطور على الخير لا يحيد عنه ، ولا يميل إذا خلى وفطرته السليمة ، ولكنه ما دام حر الإرادة ، فقد يتجه إلى الشر ، ويسلك الطريق المعوج ويتدنّى إلى المنكر ، وواجب المعلمين والمربين أن يعيدوه إلى طريق الخير برده إلى فطرته المستقيمة (4).

وهذا المعنى يطابق مع ما جاء عن الرسول ﷺ : (ما من مولود يولد إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تلد البهيمة بهيمة

---

(1) أعضاء على الكونفوشيوسية فى الصين واليابان وكوريا ، د. على عبدالعال ربيع، ص 13، بتصرف ، ط دار الفكر العربى ، بيروت 1962م.

(2) قصة الديتات ، سليمان مظهر ، ص 185.

(3) رواه الترمذى برقم 2300 ، وأبوداود برقم 4193 ، وجاء فى مسند أحمد برقم 7685 .

(4) الأدب القديم ، د. حسن الهوارى ، ص 119 ، ط دار الطباعة المحمدية ، القاهرة 1978م.

جمعاء فهل تجدون فيها من جدعاء<sup>(1)</sup>.

ولكن من الممكن أن يكون هناك فارق جوهري بين القولين . وهو أن الخير الذي يريده كونفوشيوس : هو السير سيرة حسنة بين الناس ، أما ما يروى عن الرسول ﷺ فهو الإسلام الجامع لكل معانى الخير .

يقول كونفوشيوس:

إن الفضيلة هي التوسط والاعتدال في كل أفعال النفس وسجاياها ، فالعيش من غير ضعف ولا ذل فضيلة ، والعدل مع الرحمة بالمسئ فضيلة ، والزهد مع العمل لكسب الرزق فضيلة ، والرزيلة هي الإفراط أو التفريط في كل أفعال النفس وسجاياها.

والسعيد هو الذى يلتزم الفضائل ، والشقى هو الذى يمارس الرذائل ، لأنه يبذل الفطرة الفاضلة التى فطر الإنسان عليها ، ويهدم أسس الكمال الإنسانى<sup>(2)</sup> .  
سأله أحد تلاميذه يوماً : هل من الصواب أن يكون المرء محبوباً من جميع جيرانه ؟ قال كونفوشيوس : لا . فقال التلميذ : هل من الصواب ، أن يكون المرء مكروهاً من جميع جيرانه؟  
قال كونفوشيوس : لا .. ولكن الأفضل أن يحبه الخيرون الفضلاء ويبغضه الشريريون الأشقياء<sup>(3)</sup>.

وهذا الكلام غاية في الصحة ، لأن البشر لم يجتمعوا على أحد قط حتى على أحد من الأنبياء .

يقول كونفوشيوس : إن الرحمة أهم خصيصة من خصائص المجتمع الفاضل، فتراحم أفراد المجتمع يقيم الأواصر المتينة ، ويدعم الروابط الطيبة ،

(1) البخارى رقم 1270 فى كتاب الجنائز. ورواه أحمد فى المسند رقم 6884.

(2) الأديان القديمة ، د. حسن الهوارى 135 مرجع سابق .

(3) الأديان القديمة ، مرجع سابق ، ص 120.

ويبنى المجتمع السعيد ، وليست الرحمة عفواً عن كل سوء ، وتسامحاً عن كل منكر. لكنها الرفق بالمجموع ومعاملة المارقين بما يستحقون من غير شطط أو تقصير ، فالرحمة من غير ضابط ولغير من يستحق وبال يردى ، وإفك مبين<sup>(1)</sup>. وهذا فهم راق لمسألة الرحمة يضع هذه الصفة فى نصابها اللائق بها بلا إفراط أو تفريط .

ونختم أقوال هذا الحكيم بهذا اللقاء ، وذلك الحوار الذى دار بين كونفوشيوس وبين امرأة : حيث التقى كونفوشيوس بامرأة تصرخ وتستغيث ، فلما سألها عن سبب بكائها وعويلها فى هذه الصحراء الجرداء أجابته :  
إن نمرأ مفترساً قتل والد زوجى فى هذا المكان ، كما افترس نفس النمر زوجى ، ثم تبعه بولدى الصغير !  
وعندما سألها كونفوشيوس : لماذا تبكين فى هذا المكان المقفر بما فيه من نمور؟

أجابت المرأة : لأنه يوجد فى البلدة حاكم ظالم .  
وعندما جمع كونفوشيوس تلك الإجابة . استدار نحو تلاميذه وقال لهم ،  
اكتبوا عندكم .. إن الحاكم الظالم أخطر على الناس من النمر المفترس<sup>(2)</sup>.  
عقيدة كونفوشيوس وفلسفته :

تخرج كونفوشيوس على التعاليم الدينية التى كانت سائدة عند الصينيين الأقدمين ، فقد لقتها صغيراً وتلقاها والعود أخضر بالقبول .  
ولذا أحيا التعاليم الدينية القديمة ، ودون أصولها ، ولم يتعرض فى دراسته الخاصة لمناقشتها ، ولم يكن له مذهب فيما يدعو إليه ، ويحث الناس على اعتناقه ،

(1) المرجع السابق ، ص 120.

(2) قصة الديتات ، سليمان مظهر ، ص 196.

بل كانت كل عنايته تقوم على السلوك القويم والدعوة إليه ، ولم يكن مدعياً لرسالة ، ولم يكن هو رسولاً مبعوثاً .

بل كان حكيماً فيلسوفاً يبشر بمذهب الأخلاق ويتمسك أشد الاستمساك به .  
وأما عقيدته فهي ما كان يعتقد الصينيون القدماء ، ولا تزال آثاره في عقيدة أكثر الصينيين المعاصرين .

وأساس هذه العقيدة أنهم يعبدون ثلاثة أشياء : السماء والأرواح المسيطرة على ظواهر الأشياء ، الملائكة ، أرواح الآباء (1) .

### السماء :

كان الصينيون يعتقدون بوجود الإله الواحد الذي لا تدركه الأبصار ، عرضه السماء ، ومقاليد الأرض بيده ، وكانوا يقولون : إن إله السماء كان عظيماً يحب الخير ، ويكره الشر ، ويجازي الناس بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .  
فلكل من الشمس والقمر والكواكب والنجوم اللامعة والأرض وما اشتملت عليه من تلال وأنهار ، لكل منها إله أو نصف إله (2) .  
يقول الشيخ محمد أبوزهرة :

أما السماء المعبودة فلا يقصدون بها تلك القباب الزرقاء ، بل يقصدون تلك الأفلاك ومداراتها والقوى المسيطرة التي تسيطر عليها وتسيرها في مداراتها ، وبتواصلها بالأرض وبالأمتار والرياح وغير ذلك تنبت الأرض من كل زوج بهيج .  
وكانت عبادتهم للسماء لأنهم يعتقدون أنها عالم حي متحرك حسب نظام دقيق محكم ، وأن كل ما في العالم من قوى مسيرة إنما هو خاضع لسلطان السماء (3) .

(1) الديانات القديمة : محمد أبوزهرة ، ص 72 .

(2) الكونفوشيوسية ، مرجع سابق ، ص 174 .

(3) الديانات القديمة ، ص 72 .

اعتقدوا النفع والضرر فى الكائنات فعملوا على استرضائها ودفع ضررها  
بتقديم القرابين والإجلال لها والتقدير .

وعبدوها على أنها رسل الله وجنوده ، وواسطة لما يحدث لهذا العالم من  
خير وشر .

وإذا كان كل شئ فى الوجود قد يضر وقد ينفع فمن الطبيعى أن يكون كل ما  
فيه من جند الله .

لكن كونفوشيوس نفسه كان يقول : بوجود إله واحد يدبر الكون بحكمته ،  
وأنه يجب أن يعبد دون سواه .

لكنه لما وجد قومه غارقين فى بحار الأوهام ، يفكرون فى عالم الأرواح  
والتأمل فى ذات الإله وملائكته وجنده ، لم ينكر عليهم ولم يصادمهم فى عقائدهم ،  
ولكنه دعاهم إلى سبيل الحقيقة بالحكمة والموعظة الحسنة <sup>(1)</sup>.

ويقدر الصينيون الملائكة ، ويقدمون لها القرابين على أن لها تأثيراً فى  
الكون.

يقدر الصينيون أرواح أجدادهم الأقدمين ، ويعتقدون ببقاء الأرواح .  
والقرابين عبارة عن موائد يدخلون بها السرور على تلك الأرواح بأنواع  
الموسيقى ، ويوجد فى كل بيت معبد لأرواح الأموات ولآلهة المنزل <sup>(2)</sup>.

يقول العقاد . ولما مات كونفوشيوس 478 ق.م، أقاموا له الهياكل ،  
وعبدوه على سنتهم فى عبادة أرواح الأسلاف الصالحين ، وأوشكوا أن يتخذوا  
عبادته عبادة رسمية أى حكومية على عهد أسرة مان فى القرن الثانى قبل الميلاد ،  
وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه فى المدارس ومعاهد التعليم .

وكانت هياكله فى الواقع بمثابة مدارس يؤمها الناس لسماع الدروس ،  
كما يؤمونها لأداء الصلاة ، ولم تزل عبادته قائمة إلى العصور المتأخرة بل إلى

(1) الكونفوشيوسية ، ص 175.

(2) الموسوعة الميسرة فى المذاهب والأديان والأحزاب المعاصرة ، ص 763، ج 2.

القرن العشرين ، فخصوه فى سنة 1906 بمراسم قربانية كمراسم الإله الأكبر "شانج تى" إله السماء ، لأنه فى عرفهم ند السماء .

ومن لم يؤمن اليوم بربوبيته من الصينيين المتعلمين قلة ولكن فى نفسه توقير يقرب من التأليه ، وقد جعلوا يوم ميلاده - وهو السابع والعشرين من شهر أغسطس - عيداً قومياً يحجون فيه إلى مسقط رأسه ، وينوب عن الدولة موظف كبير فى محفل أمام محرابه (1).

وهكذا عبد كونفوشيوس كما عبد الأسلاف من قبله ، ولكن فى هذه العبادة المتحمسة نسى معظم عباده صحة كلماته : كل ما يمكن أن ادعى أو أسمى به هو أننى تلميذ طموح لا يشبع ، ومعلم لا يمل التعليم (2).  
لم يكن كونفوشيوس يؤمن بالجنة ولا بالنار ، ولكنه كان يؤمن كل الإيمان بأنصاره الذين تابعوه على حاله (3).

وإذا لم يكونوا مؤمنين بالجنة والنار فهم ليسوا مؤمنين بالبعث أصلاً إذ أن همهم منصب على إصلاح الحياة الدنيا ، ولا يسألون عن مصير الأرواح بعد خروجها من الأجساد ، وقد سأل تلميذ أستاذه كونفوشيوس عن الموت فقال : إننا لم ندرس الحياة بعد ، فكيف نستطيع أن ندرس الموت ؟ !  
وعلى هذا فالجزاء والثواب : إنما يكونان فى الدنيا ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

يؤمن الصينيون بالقضاء والقدر ، وذلك عندما تتكاثر الآثام والذنوب عليهم يكون العقاب من السماء عليهم بالزلازل والبراكين .  
الحاكم ابن السماء فإذا ما قسا وظلم وجانب العدل فإن السماء تسلط عليه من رعيته من يخلعه ليحل محله شخص آخر عادل (4).

(1) الله ، عيس محمود العقاد ، ط دار المعارف ، ص 84 ، القاهرة .

(2) عظماء قادة الأديان ، د. عبد الجليل شلبى ، ص 86 ، طبع القاهرة .

(3) المرجع السابق ، ص 81 .

(4) الموسوعة الميسرة ، ص 763 ، مرجع سابق .

يقال أن الإله قد أعطى لكل إنسان ضميراً ، إذا تبعه يحفظه ويقوده إلى الطريق السوى .

والإله دائماً يبارك الطيب ويعاقب الردئ ، ولذلك أنزل المصائب على بيت هشيا (بيت الملك السابق) كى يضع حداً لآلامه (1).

هذا عن العقيدة ، أما العبادة فكانت غناء أو رقصاً وموسيقى وكأنهم بهذه الأعمال يشركون آلهتهم معهم فى سرورهم وأفراحهم وأغانيهم وموسيقاهم !

ومهما يكن من شئ . فإن كونفوشيوس كان كغيره من الصينيين فى مجال العقيدة لم يأت بجديد ، فكان يقدم القرابين ، ويقوم بواجب العبادة التى يقوم بها كل صينى ، بل كان من الناحية الدينية ساذجاً يتشاعم من هدير الرعد ، وترتجف وترتعد فرائصه عندما يسمعه ، ويقرأ التعاويذ لطرد الأرواح الشريرة من بيته .

وفى الجملة كانت عقيدته ساذجة ، وعقله فى هذه الناحية كان عشا للخرافات والأوهام ، وفيه موضع لأساطير الأولين التى اكتتبها وحفظها .

ولكن عبقريته وقوة إرادته باديتان فى آرائه فى السلوك الإنسانى ، والخلق القويم ، ورياضة النفس (2).

### فلسفة كونفوشيوس الأخلاقية :

اعتقد الصينيون منذ أقدم العصور ، أن الأحداث الكونية تتبع الأخلاق التى تسود الناس وملوكهم ، فكلما كان الاعتدال والانسجام والفضائل يسودان المعاملة بين الناس ، ويربطان العلاقات بينهم برباط من المودة والرحمة ، فالكون سائر فى فلكه من غير أى اضطراب .

(1) الديانات القديمة ، ص 73، مرجع سابق .

(2) مقارنات الأديان ، الديانات القديمة ، الشيخ. محمد أبوزهرة ، ص 73 ، 74.

ولكن إذا حاد الإنسان عن سمت الحق والسلوك القويم على الفضيلة ، اضطرب بعض ما فى الكون لمخالفة القاتون الأخلاقى . وما الزلازل ، وخسف الأرض ، وكسوف الشمس ، وخسوف القمر إلا أمارات لفساد خلقى ، أحدث ذلك الاضطراب الكونى .

وإذا كان السلوك غير القويم يحدث الاضطراب والقحط ، فالسلوك القويم يجلب الخير والبركات ، ويجعل كل ما فى الكون يجرى على رغبة الإنسان . والسبب فى ذلك أنهم كانوا يعتقدون : أن المؤثرات فى الأكوان ترجع إلى ثلاثة :

أولها : السماء ولها السلطان الأعلى .

وثانيها : الأرض لقبولها أحكام السماء .

وثالثها : الإنسان بما يؤثره بإرادته ، فإرادته الفضيلة ، وسلوكه سبيلها يجعل مظاهر الكون إلى خير الإنسان ، فالجو يمتلئ بالنسيم العليل ، والحرارة المنعشة والغيث المحيى لنبات الأرض من غير أن يخرّب العمران <sup>(1)</sup> .  
فالعقيدة الصينية : تجعل للإنسان تأثيراً ذاتياً بسلوكه فى الوجود ، فإذا كان سلوك الإنسان خيراً كانت الطبيعة خيرة معه ، وإذا كان سلوك الإنسان شريراً كانت الطبيعة شريرة معه .

والإنسان عند كونفوشيوس مفطور على الخير سالك الطريق القويم لو خلى وفطرته ، ولكنه مع الفطرة الخيرة حى مستقل مفكر . لا تمنع فطرته من النزوع إلى الشر وسلوك سبيله ، والارتباط فى حمائته ، وذلك لإرادته المستقلة واختياره ، واستيلاء الشهوات عليه ، ومع أنهم كانوا يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويزعنون لأحكام السماء ، يجعلون لإرادة الإنسان الشأن الأول . وذلك لأن الإرادة الإنسانية للخير أو للشر لها أثر فى الأكوان .

(1) المرجع السابق ، ص 74 .



ولأن آلهتهم عادلة ، فقد زعموا أنها لعدلها تجعل مشيئتها فى الكون على حسب عمل الإنسان إن خيراً فخير وإن شر فشر .

وطريق الخير : هو الاعتدال والاقتصاد فى كل أفعال النفس وسجاياها ،  
فالقناعة مع الجد من غير الاستسلام فضيلة ، واللين من غير ضعف فضيلة ،  
والرحمة مع العدل مع المسئى فضيلة ، وأقصى الطرفين من إفراط وتفريط رذيلة .  
ويعدون الفضيلة طريق السعادة والرذيلة طريق الشقاء ، لأنه إذا كانت  
آلهتهم تغضب وترسل شواظاً على من يخالف قانون الأخلاق ، فالشقاء فى  
المخالفة، والسعادة فى الموافقة ، لأن الموافقة تجعل النفس متوافقة مع فطرتها  
منسجمة مع طبيعتها .

والرحمة أخص ما يجب أن يسود الناس من صلات . فهى الرابطة التى  
تربط آحاد المجتمع بعضهم ببعض ، وهى التى تجعل الناس سعداء من غير زاجر ،  
ولا قانون مشدد .

وإذا كانت الفضيلة فى عمومها طريقاً لسعادة الآحاد ، فالرحمة التى تسود  
المجموع هى طريق سعادته .

إذن فغاية الفضيلة فى عمومها وخصوصها عندهم : الكمال الإنسانى  
والسعادة لبنى الإنسان وإقامة بناء المجتمع على التواد والرحمة والتعاطف .  
وقوانين الأخلاق لا تنفصل عن السياسة عند قدماء الصينيين . فأقوم  
الأخلاق ينتج أقوم السياسة ، وأحب أنواع الحكم ، بل إن الحاكم لا يمكن أن يحمل  
الناس على الجادة ، من غير أن يحمل نفسه عليها ، وإن الملك الذى لا يسوس  
الناس ونفسه بالأخلاق القويمة . ينزل عليه غضب السماء ، وينزع منه الملك -  
كما بينا سابقاً- فلا تسامح فى قانون الأخلاق ولو كان الآثم ملكاً ، وبهذا استمر  
العدل قائماً مع وثبيتهم وعدم تدينهم بدين سماوى (1).

(1) الديانات القديمة ، محمد أبوزهرة ، ص 75 ، 76.

ومما يدل على أن السياسة لا تنفصل عن الأخلاق ما قاله كوفوشيوس :  
السياسة لا تقوم على الأخلاق ، فالخلق القويم ينتج سياسة قويمه وحكومة قوية  
رشيدة .

فالرعية تصلح بصلاح الراعى متخذة منه قدوة حسنة ، والحاكم لا يملك أن  
يحمل الناس على الجادة برهبة قوانينه وبطش سلطانه ، وإنما بحسن أخلاقه وكريم  
خصاله واختيار أعوانه من الفضلاء الصالحين (1).

هذا الذى سبق كان دأب الأمة الصينية ككل وإن المجتمع الصينى كان  
يسوده الخلق الفاضل ربحاً من الزمن ، إلى أن تولى مقاليد الأمور فى البلاد فى  
القرن السابع قبل المسيح أسرة حكمت البلاد بالحديد والنار ، وحفظ التاريخ لها  
أبشع الجرائم فى حق الشعب الصينى ، الأمر الذى حدا بالشعب الصينى أن ينحدر  
فى طريق الرذيلة والانهلال الخلقى .

كان هذا مدعاة إلى أن يبذل المصلحون قصارى الجهد للعود بالشعب إلى  
سابق عهده ، فظهر فى القرن السابع والقرن السادس قبل الميلاد عقول جبارة  
ضاعفت الجهود لمعالجة الوضع القائم .

فكان "لوتس" صاحب النحلة الطاوية ، الذى لم يستطع أن يقاوم هذا التيار  
الجارف من الانهلال الخلقى فدعا إلى العزلة والانزواء .

ولكن الكونفوشيوسية المعاصرة للوتس رفضت هذا الفكر ، ودعت إلى  
الإصلاح بنظرية جديدة ، هى فلسفة كونفوشيوس الأخلاقية الإصلاحية .  
ويحدثنا عن هذه النظرية الشيخ محمد أبوزهرة فيقول : وأرواه فى  
الإصلاح الأخلاقى تتجه إلى ثلاث نواح :

الأولى : فى بيان الأصل الخلقى الذى تقوم عليه الفضائل .

الثانى : إصلاح المجتمع وحمله على السلوك القويم .

الثالث : إصلاح نظام الحكم وتقبيده بالفضيلة لا يعدها .

(1) الأديان القديمة ، د. حسن الهوارى ، ص 131.

أما الناحية الأولى فهي قوام فلسفته ، وهى الجزء النظرى منها ، وقد ابتدأ نظراته الفلسفية ، بنظريته تعيين المعنى واللفظ ، وتعيين الأسماء والمسميات . وهى النظرية التى ابتدأ بها سقراط من بعد كونفوشيوس ، وذلك للتشابه بين كلا العنصرين ، فكونفوشيوس جاء فى وسط اضطراب خلقى ، وتلاعب فى نظم الحكم ، وعبث بمصالح الدولة واللعب بالألفاظ لتوهين الأخلاق .

فكان لابد من العمل على تعيين المعانى الدالة على الألفاظ ليثبت المعنى مستقيماً ، لكى لا يمكن التلاعب ، وإفساد الاستدلال عن طريق ذلك التلاعب . وكذلك سقراط ، وجد السوفسطائيين قد اتخذوا اللعب بالألفاظ طريقاً لحل أخلاق الشباب الأثينى ، وإفساد اعتقاده ، ولذا كان أو لما دعا إليه سقراط تعيين المعانى الدالة عليها الألفاظ ، حتى لا يتخذ المفسدون من بريق اللفظ ما يفسد الاستدلال والتفكير (1).

"الكونفوشيوس" : أحد تلاميذه سألته : بأى شئ يبتدى سياسته إن تولى حكم الإمارة ، فقال : لابد من تصحيح الأسماء ، فدهش التلميذ من هذا الجواب ، ووقع من نفسه موضع العجب . فقال كونفوشيوس : إذا لم تكن الأسماء صحيحة ، لا يوافق الكلام حقائق الأشياء ، وإذا لم يكن الكلام موافقاً للحقائق وقع الخلط فى اللغة ، وفسدت الأمور .

وعنايته بتعيين الألفاظ جزء من عنايته بأن يكون الشخص الكامل على تمام المعرفة بنفسه وبحقائق الأشياء ، فهو يحث على المعرفة ويعتبرها جزءاً غير قابل للانفصال من منهجه الخلقى ، فيعتبر من كمال الفضيلة للرجل حسن إدراكه للأمور ، وقدرته على فهم ما يلقى بين يديه من المسائل من غير أن يدفعه الغرور إلى الضلال.

(1) انظر الديانات القديمة لأبى زهرة ، ص 76 ، وانظر : الجانب الفلسفى عند الأمتين الفارسية والصينية، د. على معبد فرغلى ، ص 140 ، ط دار الطباعة المحمدية ، 1982 ، القاهرة .

وطريق المعرفة عند كونفوشيوس : التفكير ، فهو شرط لازم لكل معرفة :  
ولذا يقول "من تعلم من غير تفكير وتدبر فهو فى حيرة ، ومن فكر من غير تعلم  
فهو على خطر الضلال (1).

ويرى : أن طريق العلم إلا يقيس الغائب على الشاهد لأنه تخمين ، ولا  
يجرى الحدس والتخمين فيما لا يعلم . لأن الظن لا يقنى من الحق شيئاً .  
ولذا يقول لأحد تلاميذه : ألا أعلمك طريق العلم ، طريق العلم من طريق  
الفضيلة ، وليست المعرفة هى الفضيلة بل من الفضيلة .

فالفضيلة عند كونفوشيوس لا تطلب لما فيها من لذات ، ولكن تطلب لأنها  
كمال الإنسان ، ولأنها الفطرة السليمة ، والطريقة التى بها يتم التآلف والانسجام  
بين الإنسان والعالم (2).

يقول كونفوشيوس " ذو الفضيلة يستبشر بالماء الجارى ، وذو الفضيلة  
يستبشر بالجبل الراسى ، وذو الفضيلة نشيط ورزين ومأمون . فالفضيلة عنده  
روضة فيها الراح والريحان ، والستر والاطمئنان ، أما ذو الرذيلة فهو فى شقاء  
وبلاء مستمر ، وينزل عليه غضب السماء جزاء ما قدمت يداه واقتربت نفسه ولذا  
يقول : يولد الإنسان مستقيماً فمن فقد الاستقامة واستمر حياً فنجاته من الموت من  
حسن حظه (3).

ولكن الفطرة من الممكن أن تحيد عن الصراط السوى ، وفى نفس الوقت  
قد يغالطها الإنسان فيزعم أنه سائر على مقتضاها مؤد للواجب سالك سبيله ، فكيف  
يطمنن إلى أن ما يسلكه هو موجب الفطرة وهو الفضيلة ؟

وقد عالج الحكيم هذه الحالة ، ويفهم من حوارهم مع تلاميذه ، أنه يوجب  
على الشخص أن يراقب نفسه: وقد قال أحد تلاميذه: أراقب نفسى وأسألها كل يوم:

(1) الأكيان القديمة ، الشيخ محمد أبوزهرة ، ص 85.

(2) المصدر السابق .

(3) انظر الديقات القديمة لأبى زهرة ، ص 76 ، وانظر : الجانب الفلسفى عند الأمتين الفارسية  
والصينية، د. على معبد فرغلى ، ص 140 ، ط دار الطباعة المحمدية ، 1982 ، القاهرة .

هل خانت عندما تولت شئون الناس ؟

هل كذبت عندما عاملت ؟

هل كانت غافلة عن العمل بما تلقته من العلوم ؟

بهذه المراقبة يأمن الرجل أن يحيد عن الفطرة ، والذي كان يخشاه كونفوشيوس على الفطرة : اللذات من أن تطمس نورها . ولذا دعا إلى الخشونة في العيش ، حتى تكون اللذات أمة للإنسان ، والإنسان سيداً عليها .

فتلك المراقبة النفسية . وتعود النفس خشن الحياة والسيطرة على اللذات والشهوات أول ثمراتها التمسك بالفضيلة والتمسك بالآداب . وأول ثمار التمسك بالآداب حسن المعاملة وحسن العشرة مع غيره من الناس .

ولذا يقول : ثمرة الآداب حسن العشرة ، وإنما تحسن سنة السلف الصالح لاستمالتها على هذه الصفة التي تراعى في جميع الشئون صغيرها وكبيرها ، ولكن لو روعى حسن المعاشرة من غير ضبط بالفضيلة ما استقامت الأمور <sup>(1)</sup>.

وجملة القول في هذه الناحية : أن كونفوشيوس يرى أن المظهر الحسى للفضيلة : حسن المعاملة والمعاشرة المقيد بقيودها .

ومن هنا نرى أن آراءه في الأخلاق تبتدى من الفرد ، وتنتقل إلى إصلاح الجماعة ، بأن يكون الأفراد جميعاً مقيدين أنفسهم بالفضيلة ، بحيث يجعل كل شخص من نفسه دافعاً للفضيلة ، يبعثه على أن يعامل غيره معاملة مقيدة بالأخلاق الفاضلة ، فلا يظلم ، ولا يتعصب ، ولا يغلب رغباته ، ولا يجعل من نفسه مغلباً على الآخرين .

ولذا جاء في كلامه "الرجل الفاضل لا يتحيز . . الرجل الفاضل لا يتعصب". وهذه كلها آراء لو تمسك كل واحد بها لقامت جماعة فاضلة ، يرتبط أحادها بالحق القويم من غير منافسة ، ولا مغالبة ولا تناحر .

---

(1) انظر الديانات القديمة لأبى زهرة ، ص 78، وكونفوشيوس النبى الصينى ، د. حسن شحاته سغفان ، ص 34.

أما من الناحية الثانية ، وهى محاولته إصلاح المجتمع .  
فما تقدم يعلم : أن إصلاح المجتمع فى نظره غير عسير بل غير متعذر ،  
وذلك أن يتمسك كل أحاده بقانون الأخلاق ، ولكن كيف السبيل إلى حمل العامة على  
التمسك بقوانين الأخلاق ؟ يرى ذلك غير عسير ، ولا بد من عاملين :  
أحدهما : دعوة الرجل إلى الأخلاق وانغماره فى الناس .  
وثانيهما : جعل القائمين بشئون الحكم متمسكين بقوانين الأخلاق <sup>(1)</sup> .  
ومهما يكن من شئ ، فإن دعوة كونفوشيوس إلى الأخلاق الفاضلة قد سلك  
فيها ثلاثة مسالك :

1- المسلك الأول : أنه دعا إلى احترام الآباء والعناية بشدة إلى تماسك الأسرة ،  
ولذا نرى فى كتبه عبارات كثيرة فى الدعوة إلى احترام الآباء ، وجعل ذلك  
أساساً من أسس الكمال فى نظره ، فهو يقول : واجب الولد البر بأبويه إذا كان  
داخل المنزل ، والاحترام لذوى الأنساب إذا كان خارجه ، والصدق فى أقواله  
والرحمة بالناس فى كل أفعاله ، وأن يتقرب إلى الفضلاء إذا كان لديه فراغ من  
الوقت كما جاء فى كتب الأخلاق .

2- المسلك الثانى : من مسالكة فى الدعوة إلى الفضيلة مسلك التدرج ، فكان يدعو  
إلى الأخلاق فى رفق ويعطى كل واحد من الناس مقدار طاقته فى دعوته . وهو  
يقول : ومن الناس من نستطيع محادثته فى العلم ، ولا يمكن أن نحمله على  
السير معنا بمقتضى الفطرة .

3- ومنهم من تستطيع أن تسير بهم على الفطرة من غير أن يكونوا ذوى قدم ثابتة  
فيها ، ومنهم من يكون ذا خلق قويم شديد التمسك بالفطرة ، والكمال الإنسانى ،  
ولكن لا يمكننا مشاورته فى تقدير الشئون <sup>(2)</sup> .

---

(<sup>1</sup>) انظر فلاسفة الشرق : تأليف : أ.و.ف. توملين ، ترجمة عبدالحليم سليم ، مراجعة على أدهم ،  
ص 287 ، ط دار المعارف ، مصر .

(<sup>2</sup>) انظر كونفوشيوس النبى الصينى ، مرجع سابق ، ص 38 ، ط بيروت ، 1963م .

وكونفوشيوس يقول : إن هذا يعد من الذين فهموا أغوار النفس ، وإن النفوس ليست بمستوى واحد . وهذا يتطابق مع الأثر القائل : "حدثوا الناس بما يعرفون ودعوهم يفكرون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله " .

وقد روى أحد تلاميذه عنه القول : إذا رفعت إلى آراء الأستاذ النظر رأيتها أعلى مما كنت أعتقد ، وهى ملء نفسى ، وتحيط بى ، وتستغرق كل حسى ، والأستاذ يرشد الناس بالتدريج إرشاداً حسناً ، وقد وسع بالعلوم مجال فكرى ، وضبط بالآداب سلوكى ، حتى إنى لو رغبت فى ترك آرائه ما طواعتنى نفسى (1) .

4- المسلك الثالث : من مسالك دعوته إلى الخلق القويم ، والقدوة ، والأسوة ، فهو يرى : أن الرجل الفاضل يستطيع أن يؤثر بسلوكه القويم أكثر من أى بيان مهما تكن بلاغته ، ومن غير أن يهتم بالرياء فى دعوته ،

ولقد كان يدعو تلاميذه إلى السلوك الخلقى بأخلاقه ، كما دعاهم بكلماته ، وهو الذى يقول : أظنون أن أخفى عليكم شيئاً ، ما من أمر أعمله إلا فيه إرضائكم وهذه هى طريقتى فى التربية (2) .

وبناء على هذا النص أقول : إن التزاوج بين القول والعمل أمر يكسب النفوس ثقة بالداعى أو المصلح ، وتعطى الأسوة الطيبة كلمات الداعى إلى الفضيلة حياة تحيا بها ، فيؤمن الناس بهذه المناهج عن صدق وإخلاص . فمذهب كونفوشيوس : أن يختلط بالناس ليصلحهم ، وليس من مذهبه أن يعتزل الناس ، وينقطع عنهم .

ولذا جاء فى كتاب "الحوار" لا يمكن أن أعاشر الطيور والوحوش ، فلو لم أعاشر هذه الأمة ، فمن الذى أعاشره ، لو كانت البلاد تحت سيادة عادلة ما كانت فى حاجة إلى محاولة لإعادة نظامها (3) .

(1) المرجع السابق ، ص 40 .

(2) المصدر نفسه ، ص 78 .

(3) انظر الديبائات القديمة ، محمد أبوزهرة ، بتصرف ، ص 76 ، وما بعدها .

فالمخالطة للناس من أجل الإصلاح أمر دعا إليه الإسلام وحث عليه في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ : " الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم " (1).

### آراء كونفوشيوس السياسية :

هذا الذى سبق محاولة من الحكيم الصينى فى إصلاح الأخلاق بشخصه دون معلونة من السلطة ، وهذا الأمر قد أتينا عليه بشئ من التفصيل ، ولنتنقل إلى الناحية الثانية من النواحي الخلقية وهى أراؤه السياسية .

وليس المقصود بالآراء السياسية ما يتبادر إلى الأذهان من معرفة نوعية حول نظام الحكم هل هو ديمقراطى ؟ أو أرسقراطى ؟ فهذا أمر لم يعتن به الحكيم الصينى وإنما يقصد بالآراء السياسية كما يحدثنا الشيخ محمد أبوزهرة : هو مقدار القسط الذى يقوم به الساسة من إصلاح فى الأخلاق ، وما يجب أن يتبعوه ليكون حكمهم صالحاً للوصول إلى الغاية منه ، وهى إصلاح أخلاق العامة .

وما يجب أن يتصف به الحاكم من أوصاف ويتحلى به من أخلاق وما يصح أن يكون موصلاً لتولى المناصب ثم الأوصاف العامة للحكومة الصالحة للقيام بهذه المهمة الخلقية (2).

ومن منطلق هذا يرى كونفوشيوس :

1- أن السياسة الحكيمة هى ما تقوم على الأخلاق القويمة . فليست السياسة بمنفصلة عن الأخلاق ، ومن فصل الأخلاق عن السياسة فهو لم يفهم الغاية من السياسة ، ولا الغاية من الأخلاق فى نظر كونفوشيوس ولذا يقول : إنى فى الفصل بين المتخاصمين كغيرى من الناس ولكن السياسة الحكيمة أن تهذب

(1) رواه الترمذى حديث رقم 2431 فى كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ، ورواه ابن ماجه فى كتاب

الفتن 4022.

(2) انظر الديتات القديمة ، ص 77.



الرعية حتى لا تكون مخاصمة .

2- يرى كونفوشيوس : أن الوصول إلى هذه الغاية أمر ميسور لأن الملوك والقادة فى السياسة يؤثرون بأخلاقهم أكثر مما يؤثرون بقوانينهم .

فهو يعتقد اعتقاداً جازماً : أن العامة يسرون على أخلاق حكامهم . فإذا كان حكامهم صالحين صلحوا وإن كانوا معوجين فسدوا ولذلك يجعل أساس إصلاح أخلاق الناس أن يكون حكامهم نوى أخلاق . ولذا يقول : إن الحاكم إذا شغف بالآداب الفاضلة لا يجترؤ أحد من رعيته على اهانة غيره وإذا شغف بالصدق لا يجترؤ أحد على الكذب ، ومن هذه حاله أقبل عليه الناس حاملين أولادهم على ظهورهم (1) .

3- إن أول الأسس التى يجب أن يعتمد الحاكم عليها ثقة الرعية به ونيلها محبته . فيجب أن يعمل على تثبيت هذه الثقة واجتذاب الجماهير لتجد أوامره إجابة من القلوب ، ولا تجد مظهراً من الخضوع ، لأنه إن أطاع الناس الحاكم رهبة وخوفاً انقطع الحبل الموصول بين الحاكم والمحكوم .

سأله أحد تلاميذه عن ضروريات السياسة فقال : من ضروريات السياسة : الأقوال الكافية ، وذخائر الحرب الواقية ، وثقة الرعية . فقال التلميذ : لو اضطررنا إلى حذف واحد من هذه الثلاثة فبأيها تبتدىء بالحذف .

قال : احذفوا ذخائر الحرب ، قال : لو اضطررنا إلى حذف أحد هذين الأمرين فأيهما نحذف وأيها نبقى ؟

قال : احذفوا الأقوات فإن الموت حظ الإنسان منذ الغابر من الأزمان ، ولكن السياسة لا تقوم إلا بثقة الرعية (2) .

4- وكان كونفوشيوس يرى : أن تولى الصالحين يعين الحاكم على تنفيذ مهمته

(1) حكمة الصين ، مرجع سابق ، ص 170 .

(2) انظر كونفوشيوس النبى الصينى ، ص 42 .

الخلقية ويستحسن لنوى الأخلاق والصالح أن يتولوا مناصب الدولة ويطلبوها  
إن كان الحاكم عادلاً .

ولذا يقول الحكيم الصيني : آمن بالحق ، وأحب العلم ، واتبع الفطرة ، ولا  
تقم فى مملكة سادتها الفوضى ، واطلب المناصب إذا كانت البلاد محكومة بسياسة  
حكيمة، واعتزل ، إذا كانت تحت سيادة غاشمة ، فمن العار أن تفتقر وتبتعد والبلاد  
تحت سيادة عادلة ، ومن العار أن تغنى وتعز والبلاد تحت سياسة غاشمة .

5- إذا كانت الحكومة مستقيمة ، وهى التى يكون الحكم فيها على مقتضى قانون  
الأخلاق ، كان من أثرها أن تكون الأمة قوية شجاعة .

ومجمل ما يقال فى سياسة هذا الحكيم : أنها الأخلاق الفاضلة فهى عدة  
الحكام وعتادهم ، وهى غايتهم ومرتجاهم ، وهى المطمع الأسمى وهى البذرة  
الصالحة يلقىها الحاكم فى أمتة فتنبت أزكى النبات وتثمر أطيب الثمرات .

وما كان هو إلا نموذجاً للحاكم الصالح ، حكم فلم يخالف حكمه آراءه ، ولم  
يباعد سلطان بينه وبين كلماته .

ولقد قال فيه أحد تلاميذه : إن رتبة الأستاذ كونفوشيوس لا يمكن أن يصل  
إليها أحد ، كما أن السماء لا يمكن أن يصعد إليها أحد ، ولو كان للأستاذ حظ من  
الإمارة أو الرياسة لصدق عليه قول القائل : إن قام الرعية قاموا سراعاً ، وإن  
هداهم سارعوا ، وإن أراحهم آووا منه إلى ظل وارف ، وإن عاش عاش جليلاً ،  
وإن مات لقيت بموته النفوس حشرات ، فكيف يمكن أن يصل إلى رتبته غيره (1) .

والذى أراه : أن هذا التلميذ بالغ فى الحكم . فإذا كان هذا هو وزن  
كونفوشيوس عنده فلما بالنا بغيره من المصلحين ، إلا أنه مهما يكن من شئ فإن  
كونفوشيوس أسس مذهباً أخلاقياً رائعاً ، وإن كان فى أمر العقيدة يعادى عبدة

(1) انظر الديكتات القديمة : محمد أبوزهرة ، بتصرف ص 83 ، وما بعدها .

انظر عظماء الأديان : د. عبدالجليل شلبى ، ص 81 .

الأصنام ، وهذا المذهب له انتشار واسع فى الصين ، واليابان ، وكوريا (1).

## خاتمة :

بعد هذه التطوافة السريعة فى هذه البلاد القصية والبعيدة عنا لنرى دياناتها وأفكارها وسلوكها ، تبين لنا : أن هناك أناساً من البشر أصحاب فطرة سليمة يصلون إلى الحق من خلال فطرتهم السليمة ، ومن هؤلاء الحكيم الصينى كونفوشيوس ، الذى وهبه الله لأبيه بعد أن بلغ من الكبر عتياً ، وترك الأب الحاتى وليده يقاسى الجوع والحاجة ، ولكن هذا الولد الحكيم لم يركن إلى أنه سليل أسرة شريفة ، بل واجه الحياة بشجاعة واقتدار .

وظل يتقلب فى المناصب الإدارية حتى وصل إلى منصب رئيس الوزراء ، كل ذلك لم يحجبه عن طلب العلم والمعرفة ، فظل يعلم ويتعلم حتى عم ذكره الأمة الصينية .

وكان له تلاميذ أشبه ما يكونون بحوارى الأنبياء ، ولكن فى فحوى الحياة وفى خضمها الصعب مات ابنه ، ثم ما لبث أن مات تلميذ كان يحبه الحكيم حباً شديداً وكان ذلك بعد أن نيف الحكيم على السبعين .

كل هذه الأحداث قد أثرت فيه تأثيراً سلبياً إلى أن آذنت شمسهُ بالمغيب فى 478 قبل الميلاد .

هذا الفيلسوف لم يأت بجديد فى جانب العقيدة بل عبد كسائر بنى جنسه المعبودات التى كانت سائدة فى عصره : من السماء ، والملائكة ، والأرواح ، فكان عقله فى هذه الناحية قابلاً للخرافات والأساطير التى اكتتبها .

أما عبقريته النادرة فكانت بداية فى ما دعا إليه من مذهب أخلاقى يدعو إلى الفضيلة ، وأن الإنسان إذا ما تخلص عن الفضيلة فإنه يسير فى طريق الشقاء ،

(1) انظر المصدرين السابقين .

وينحط في درك الظلام .

وأن من لم يتمسك بالفضيلة ، فإن الأمة يجب أن تحاسبه مهما كان موقعه ملكاً كان أو خفيراً ، ودعا الجميع إلى الالتزام بالخلق الطيب الحميد وأنه يجب على الأبناء احترام الآباء .

وتدرج في دعوته تلك وحدث كل إنسان بما يطيقه عقله ، ولكنه أكد على جانب القدوة ، وأن الأخلاق لن تصل إلى قلوب الناس إلا بالقدوة والأسوة الحسنة . وكان الحكيم الصيني على رأس من أولى هذه الأمور عناية خاصة . ولما كانت الدعوة الفردية لا تصل بالإنسان إلى ما يرجو من نتائج في الوقت الكافي ، دعا الحكيم الصيني إلى آراء سياسية تمثل الجانب العملي فيما دعا إليه من نظريات أخلاقية .

وآراء كونفوشيوس السياسية ليست هي المعنى المتبادر إلى الأذهان من الاعتراض على أنظمة الحكم وغير ذلك ، بل كانت آراؤه السياسية تعنى مدى التزام الحاكم بالقانون الأخلاقي وجعل الناس يلتزمون به ، وأن السياسة عنده لا تنفصل عن الأخلاق .

إن الكونفوشيوسية مذهب إنساني دعا إلى الأخلاق الحميدة وإلى المدينة الفاضلة .

أما شأن الإلهية فقد أهمله كونفوشيوس وظن أنه قد حقق في عالم الأرض ما لم تستطع أن تحققه الآلهة في عالم السماء ومن ثم أهمل أمرها . وهكذا يضل العقل ضلالاً بعيداً إذا لم يستضيء بنور الوحي في هذه المسائل الغيبية .